حَجْـر اليمـامـة ★

للأستاذ عبد الله بن خميس

قاعدةُ اليمامة وحاضرتها وخضراؤها ، كما وصفها صاحبُ كتاب (بلاد العرب) فقال : سُرةُ اليمامة وهى منزل السلطان والجماعة ، ومنبرُها أحد المنابر الأولية (مكة) ، و (المدينة) و (اليمن) ، و (دمشق) ، و (البحرين) ، و (الكوفة) . ا هـ .

وهى سرة (نَجد) ومدينتها كما يقول ابن الفقيه ..

وهى من أقدم المدن فى (جزيرة العرب) إِذْ عُرفتْ خضراؤها أيامَ العرب البائدة فكانت حاضرة (طَسْم) ومدينتَها الأولى ، يحدثنا الهمدانى فى كتابه (صفة جزيرة العرب) قال: هى (حجر) حضور طسم وجديس وفيها آثارُهم وحصونُهم وبتلُهم الواحد بتيل وهوهن مربع مثل الصومعة مستطيل فى السماء من طين .

قال أبو مالك : لحقتُ منها بناءً طوله مئتا ذراع فى السماء .. قال : وقيل : كان منها نظرتْ زرقاء اليمامة إِلى من نزل من (جَوْجَان) من رأس (الدَّام) مسيرة يومين وليلتين .

وكانت (جَدِيسْ) تسكن (الخضْرَمة) وكانت (طَسْم) تسكن الخضراء) .. أ هـ .

وفى (حجر) حصون فارغةٌ وقصور مشيدة وبتل وآطام ، منها : (بتيل حجر) الذى شيدتْهُ (طسم) ، ومنها : (مُعْتِق) ويقع على رابية مرتفعة من روابى (حجر) بين الواديين (العِرْض) و (الوِتْر) ، ويروى بالنون (مُعْنِق) ومنها الشُّموس وهما اللذان ورد فيهما هذا البيت :

أبت شرفات من (شموس) و (معنق)
لدى القصر منا أن تضام وتضهدا

ومنها (الثَّرْمَلِيَّة) .. وقد بقيت أطلالُ تلك الحصون والقصور إلى القرن الرابع الهجرى

(*) ألقى البحث فى الجلسة العاشرة للمؤتمر المنعقدة يوم الثلاثاء ٢٤ من شوال سنة ١٤١٤ هـ الموافق ٥ من أبريل (نيسان) سنة ١٩٩٤ م .

كما يحدثنا الهمداني عن شيخه أبى مالك اليشكرى .

ولقد كانتْ (اليمامة) فى عهود (طسم) و (جديس) وفى أوائل الإسلام خضراء مُمْرِعَةً، وكانت بها أنهار جارية وعيونٌ ثرة وخضرة ونضرة .. وكانت مدينة (حجر) تسمى الخضراء ومن عيونها (الخضراء) (وهيت) كما ذكر ابن الفقيه .

وقال أستاذنا الأستاذ حمد الجاسر فى كتابه (الرياض عبر أطوار التاريخ) ولقد كانت مياه الواديين فى الماضى غزيرة ، وكانت بلادُ اليمامة كلُّها من أخصب البلاد وأكثرها مياهًا وزروعاً ونخيلاً .. وكانت مدينةُ (حجر) تسقى قديماً من (العيون) .

ويشاهد المرءُ عندما يسير على شفير وادى (البَطْحَاء) الغربى متجهًا من (الرياض) إلى (مَنْفُوحة) يشاهد سلسلة من الكظائم (الخَرَز) تمتد حتى تصل إلى الروضة الواقعة شمال (منفوحة) فى مفيض الوادى تدعى الآن (الخِضْرِمة) ، وقد عددت من تلك الكظائم فى إحدى المرات أكثر من ثلاثين خرزة وهى تمثل مجرى عين قديمة .

انتهى كلام الأستاذ حمد الجاسر .

قلت : وإلى جانب ما ذكر من خصوبة هذه الأرض وكثرة مياهها فإن من يعرف حقيقة تكوينها وطبيعة أرضها قبل أن يغمرها العمران وتختفى معالم أوصافها يدرك كيف كانت رياضاً متجاورة (وقرياناً) ريانة ، فلها من اسمها (حديثاً) نصيب (الرياض) ، ولها من اسمها (قديما) واقع (خضراء حجر) .

لقد عهدت (الرياض) يحوطها سورٌ تتخلله أبوابٌ ، كل باب ينفذ إلى جهة من جهاتها ، ولا يتجاوز محيطُ هذا السور أكثر من خمسة أكيال، أمّاما وراء هذا السور فمزارع ونخيل وبساتين من جميع الجهات ، وإذا علوت مرتفعاً من حزونها التى تحيط بها ورميت ببصرك رأيت مدينة الرياض وسط هذه الخضرة كالدّرهم فى وسط الروضة ، إننى أتذكرها الآن حينما آتى لها من (الدرعيّة) فى سن الصغر على ظهر جمل ، وحينما يعلو بى مرتفع (الوِشَام) فى أعلى (شارع الخزان) اليوم

شـرقَ بناء (الهـلال الأحـمـر) أراها هكذا لايدرك بصرى نهـاية خضـرتهـا . أمـا المدينة فأراها كما وصفتها (درهم فى قلب روضة) ، وهذا زمـان قـريب لا يمكن أن يعطى الصـورة الحقـيقـة لها ، وهى ذات عـيون وزروع ومـقام كـريم .. لكننى أتذكـر كـيف كـانت الرياض مدينتها ونخيلها وبساتينها تقع فى شبه دائرة من الحزون المحيطة بها ، تبدأ من الحزن الذى يقع به الآن حى (العليـا) ، ويمضى مُـجنْبـاً مغرباً ماراً بحزن (مـعهـد العـاصمـة) إلى (الوشـام) إلى مـرتفـعـات (أم سُلَيـمَـة) ومرتفعات (الشُّميسى) ومرتفعات (مُقْرِن) و (مِعكّال).و (ظهرة منفوحة) ومرتفعات (غُـبَـيْـرا) ومـرتفـعـات (جبل أبى غَـارِب) ومـرتفـعـات شـرق (المَلَز) إلى أن نعـود من حيث بدأنا سلسلة حزون منقادة ، آخذ بعضـها ببعض من جميع الجهات إلا من مناطق ضيقة يتطامن فـيها الحزن حتى لا تكاد تراه ، ولكنه بطبعـه حاجز طبيـعى يكمل هذه الحلقـة التى داخلها الرياض مدينة ونخيلاً ومزارع وبساتين، ولا ينفذ سيلُها إلا بعد إذن أهلها حيث مضيق (البَطْحَـاء) المعروف قبل (منفوحـة) ، هذه الروضـة (أو على الأصح مـجـمـوعـة الرياض) يصب فـيـهـا وادى (البطحاء) (الوِتْر سابقاً) وشعب (أبى رُقَـيع) ، وشـعب (الشّعـبْـة) ومنها تفضى إلى قـاع (منفوحة) ، ثم تلتقى بوادى (حنيـفـة) تحت بلدة (المصـانع) ، ويذهب بعضُ المؤرخين إلى أنها سُميتْ (حجرا) لأن عـبـيـد بن ثعلبة الحنفى هـو الذى احتجرها بعد أن بادت منها قبيلة (طسم) وسبق إِليـها عبيـد هذا .. والحقيقـة أن اسم (حـجـر) كـان موجوداً أيام (طسم) وإِنما أحتجر عبيد جانباً منها وإِلا فهى قديماً تسمى (خضراء حجر) ، ويبـدو أن تكوينهـا وطبـيـعـة أرضـهـا حـيث تحتجزها الحزونُ من كل جهاتها كانت هى سبب التسـمـيـة الأولى هذا شىء طبـيـعى .. ولا تمدنا المراجع التى بين أيدينا عن الكيـفية التى تنبىء كيف ومتى سكنت (طسم) و (جديس) هذه المنطقة ، إلا أن بعض الكتابات والنقوش التى توجد فى المنطقة تفيد باستيطان قبيلة ثمود لهـذه المنطقـة ، وهذا يصـدق مـا ذهب إلـيـه المؤرخـون مـن أن (طسمـا) و (جـديسا)

و (ثمود) يرجعون إلى جد واحد هو (سام ابن نوح) ، لذا لا نجد غرابة فى الأمر حينما نرى الآثار الثمودية . ما دامت هذه القبائل الثلاث ترجع إلى أرومة واحدة .. ولا نستبعد أن تكون الحضارة فى هذا الجزء من الجزيرة حضارة ثمودية إن لم تكن بالأصل فبالتبعية وإن لم تكن بالذات فبالنفوذ .

وذكر الهمدانى فى (الإكليل) أن (طسما) و (جديسا) كانتا قحطانيتين وأن نفوذ (طسم) تجاوز منطقة اليمامة إلى (العروض) بمنطقة الإحساء وما حولها ، ومن آثارها (حصن المُشَقَّرَ) .. والله أعلم بالصواب .

وكل ما فى الأمر أنه كان لهاتين القبيلتين فى اليمامة نفوذ وسلطة وحضارة وذكر كثير ومجد شهير .

وكانت (طسم) تسكن (حجراً) وما حولها ، وتعتبر حاضرتها وقصبة نفوذها ، وكانت (جديس) تسكن (جَوًّا) (جو الخضارم) (الخرج وما حولها) ، وهى قاعدةُ ملكها ومركز سلطتها .

وقد عنى المؤرخون بذكر هاتين القبيلتين وأفاضوا فى الحديث عنهما ، وأفرد لهما عالمان شهيران ، وهما ابن الكلبى وأبو البخترى تأليفين خاصين بهما ، ذكرهما ابن النديم فى (الفهرست) ، إلا أنهما لم يصلا إلينا .

والذى بين أيدينا مما ذكره المؤرخون هو على نحو ما جاء فى أخبار عاد وثمود والعرب البائدة والأجيال الخالية مما لم يرد به كتابٌ ولا سنة ولم يعتمد على أسفار مكتوبة ولا أخبار منسوبة ، فكل ما ورد عن (طسم) و (جديس) هو من هذا القبيل .

وملخصه أنه جرى بين هاتين القبيلتين حروبٌ وثاراتٌ مما أدى إلى تغلب قبيلة (طسم) وتسلطها على (جديس) وإذلالها وإهانتها حتى أن الفتاة من جديس لا تزُف إلى زوجها إلا بعد أن تتقدم للملك (طسم) ليقضى وطرَه منها .. فخرجت إحداهن عارية ملطخة بدمها مارة بقومها (جديس) لتستثير نخوتهم وتستعدى أنفتهم فغضبوا ، وكان من الإمعان فى الإهانة أن يصنع ولىّ أمر الفتاة وليمة يدعو

إليها ملك (طسم) وحاشيته بمناسبة العرس فقرروا أن يثأروا لأنفسهم وأن يفتكوا (بطسم) فدفنوا السيوف تحت موائد الطعام ، ولما أخذ طسم في الأكل نبش جديس سيوفهم من تحت أرجلهم وفتكوا بهم وأبادوهم .. فاستجار الطسميون بأحد ملوك اليمن (حسان بن تبع) واستعدوه على (جديس) فأقبلَ فى جيش كثيف يريد مهاجمة (جديس) فى (الخرج) ، وكانت (الزرقاء) امرأة مبصرة يضرب بها المثل فى حِدّة البصر من (طسم) ، ومتزوجة فى (جديس) فى (جو الخضرمة) (الخرج الآن) ، فأقبل جيش (تبع) ومن معه من (طسم) ، وكانت الزرقاء تنظر من بتيل عال جداً ، الناظر منه يكشف ما حول الخرج لمسافة يومين ، فأبصرت الجيش يدنو ويحمل معه على ظهور الإبل أشجاراً اقتلعها وحملها معه ليوهم الزرقاء أن الشجر أقبل يسير حتى إذا أخبرت القوم بالخبر كذبوها ، وفعلاً تم ذلك فأنكروا منها هذا القول واتهموها بضعف بدأ يدب فى بصرها ، فدهمهم العدوّ على غرة وفتك بهم وفى ذلك يقول الأعشى يصف الحادث بعد قرون :

مانظرتْ ذاتُ أشفار كنظرتها
حقا كما صدق الذئبى إذ سجعا
إذ قلبتْ مقلةً ليست بكاذبة
إذ يرفع الآل (رأس الكلب) فارتفعا
قالت أرى رجلاً فى كفه كتف
أو يخصف النعلَ ، لهفى أية صنعا
فكذبوها بما قالت فصبّحهم
(ذو آل حسان) يزجِى الموتَ والشرعا
فاستنزلوا أهل جوّ من منازلهم
وهدموا شامَخ البنيان فاتضعا
ومنذ ذلك التاريخ سميت اليمامة
باسمها وأضيفت هى إليها فقيل: (زرقاء اليمامة) .

وبعدَ (طسم) و (جديس) سكن حجراً قبيلة هزان من القبائل البائدة ، واختلف فى نسبتها ، إلا أنهم يؤكدون أنها غير (هزان طسم) وغير (هزان عترة) .

وبعد هؤلاء سكنت عنزة (حجراً) وهم قبيلة (عنزة بن أسد بن ربيعة) ، ولكنهم سكنوها على ضعف وكان استقرارهم فيها خفيفًا ، فجاءهم بنو حنيفة يقدمهم (عبيد ابن ثعلبة الحنفى) ، فوجد مكان (حجر)

خاليًا ، ووجده مخصبًا يانعًا ، فاحتجر لنفسه ولأولاده طائفةً وحل بها وبثَّ ومكث وجعل يقول :

حَلَلْنا بدارٍ كان فيها أنيسُها
فبادوا وخلَّوا ذات شيد حَصُونها
فصاروا قطينا للفلاة بغُربةٍ
رميما وصرنا فى الديار قطينُها

وجد بنو حنيفة فى (حجر) وما حولها مكانًا رحباً ومرتعًا خصبًا ، فانتشر بنو حنيفة فى اليمامة ونموا وكثر حرثهم ونسلهم وقويت شوكتهم وامتد سلطانهم ، ونافسوا فى حضارتهم وحاضرتهم أقاليم الحضارة فى جزيرة العرب وغيرها .

ويقدر أستاذنا حمد الجاسر فى كتابه (الرياض عبر أطوار التاريخ) أن سكنى بنى حنيفة لليمامة كان فى حدود ما قبل الإسلام بقرنين .

ولم تسلم حنيفة فى جاهليتها من الداء الذى يصيب القبائل والأمم ، وهو التناحر والتنافر ، فنشبت فتنة بين بنى حنيفة جردوا لها السلاح وشبت لها نار العداء .. ولما أخذت حصونهم تحميهم من التفانى صبوا بأسهم على النخيل يحرقونها ، فحرق أرقم بن عبيد بن ثعلبة الحنفى ورهطه نخيل (منفوحة) بلاد بنى قيس ثعلبة الوائليين رهط الأعشى،فبادلهم هؤلاء بمثل عملهم فحرقوا (الشط) و (البَادية) إحدى قرى (حجر) ، ومن ثم سميت (مُحْرِقَة) ، فقال الأعشى :

وأيام (حجر) إذ نحرّق نخلَه
ثَأَرْناكُمُ يومًا بتحريق أرقم
كأن نخيل (الشط) غب حريقه
مآتمُ سود سليت عند مأتم

وحادثة أخرى جمعت فيها (تميم) جمعَها لغزو (بنى حنيفة) ، فتحصنوا بحصونهم واشتغلت (تميم) بالتحريق .. وغزا (حجراً) عمرو بن كلثوم التغلبى الشاعر فتلقاه بنو حنيفة ببأس شديد فأسروه وأوثقوه فى أحد قصور (حجر) ، ولكن (بنى سحيم) من حنيفة مَنّوا عليه وأطلقوه ، وأشار إلى ذلك فى بعض شعره .

وبرز فى بنى حنيفة قادةٌ وزعماء يتنازعون السلطة ويتجاذبون السلطان ويتباورون فى

السيادة :(هوذة بن علـى السحيمى الحنفى) و (ثُمامـة بن أثـال) و (مجاعة بن مرارة) و (مسيلـمـة بـن حـبـيب) و (الرحـال ابن عنفوة) .

وكـانت قـاعدة السلطة تتـجـاذبهـا أيضـا حواضر اليـمامـة الثـلاثة : (جوٌّ الخضرمـة) بالخـرج ، و (حـجـر اليـمامـة) الريـاض و (عقرباء) فى أعلى وادى حنيفة حيث جرت المعركة الفاصلة بين المسلمين وبنى حنيفة ووقع الصلح هناك .

وبنـو حنيـفـة بن لجيم بن صعب بن على ابن بكر بن وائل: يتفرعون إلى ثلاثة بطون هم:

١ – الدُّول :وفيـهـم الثـروةُ من بنى حنيـفـة والعدد والسلطة .

٢ – عَدِىّ .

٣ – عامر .

فولد (الـدُّول) (مـرة) و (عبد الله) و (ذهل) و(ثعلبة) .

فـمن ولد مـرة بن الـدول هـوذة بـن علـى ابن ثمامة بن عمرو بن عبد العزى بن سحيم ابن مرة بن الدول .. فهوذة هذا أول معدى لبس التـاج وخـوطب بأبيـت اللـعن ، وكـتب لـه النبى ﷺ ، كما كتب لكسرى ، وقيصر ، فهو رأس بنى سحيم ومنهم عمرو بن عمرو بن سحيم قـاتل المنذر بن مـاء السـمـاء يوم عين أباغ.. ومنهم طلقٌ وشيبانُ ومالكٌ أبناء عمرو .

وأمـهم (الملاقظة) الحنفيـة سـمـيت بذلك لسخائها ، وقد مدحهم الأعشى فى القصيدة التى مدح بها هوذة فمنها :

وجـدتَ عليًّـا بائنا فـورثتَـه
وطلقـا وشيـبـانَ الجـواد ومـالكا

ومنهم طلق بن على بن طلق الصـحـابى وله رواية ، وكذلك ابنه عبد الرحمن .

فهؤلاء بنو مرة بن الدول بن حنيفة .

وأمـا بنو عـبـد الله بن الدول بن حنيـفـة ، فـمنهم صبيحٌ بن المحترش ، يقال إنه قـاتل زيد ابن الخطاب رضى الله عنه ، واستـقـام بعـدئذ وكـان له فى العلم والصـلاح يدٌ ولّاه عـمـر بن الخطاب رضى الله عنه قضاء البصرة . وأما بنو ذهل بن الدول بن حنيفة ، فمنهم جبلة بن ثور ، ونافع ابـن الأزرق الذى تنسب إليـه الأزارقة من الخـوارج .

وأما بنو ثعلبة بن الدُّول بن حنيفة ، فمنهم ثُمامة بن أَثال ، أسلم وله صحبة .. ومطرف بن النعمان ، وحرث بن جابر بن مسلمة ، وحليد بن عبد الله بن مسلمة ، ومحكم بن الطفيل قتل يوم اليمامة وكان أشرَف فى قومه من مسيلمة ومجاعة بن مرارة الذى أسره خالد بن الوليد والذى على يده تم صلح اليمامة هؤلاء ، هم بنو الدُّول بن حنيفة .

وأما ولد عدى بن حنيفة ، فمنهم مسيلمةُ ابن حبيب (الكذاب) ، ونجدةُ بن عويمر الخارجى ، والعباسُ بن الأحنف الشاعر ..

وأما بنو عامر بن حنيفة ، فمنهم عبدُ الرحمن بن محدوج .

ولم تكن (حنيفة) فى الإسلام بأقلّ شأناً منها فى الجاهلية ، فلقد كتب ﷺ إلى بعض زعمائها ودعاهم إلى الإسلام واهتم بشأن اليمامة ، وبعث سليط بن عمرو إلى ثمامة بن أثال وهوذة بن على الحنفيين رئيسى حنيفة ، كما بعث رسله إلى العظماء والملوك ، فسعد ثمامة بالإسلام ووفق للخير حسبما جاء فى قصة طويلة لا يتسع المقام هنا لذكرها .

أما هوذة بن على فرغم ما كتب به إليه رسولُ رسول الله ﷺ ، فإنه لم يوفق للسعادة ، فلقد كتب إليه النبى ﷺ كتابا جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى هوذة بن على : سلام على من اتبع الهدى ... واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر فأسلم تسلم وأجعل لك ماتحت يدك .

فأخذت هوذة العزة بالإثم ، فكتب إلى النبى ﷺ يقول : ما أحسن ماتدعو إليه وأجمله .. وأنا شاعر قومى وخطيبهم والعرب تهاب مكانى فاجعل لى بعض الأمر أتبعك .

فلما بلغ النبى ﷺ جوابه قال : لو سألنى سيابة من الأرض مافعلت .. باد وباد مافى يديه .. فلم يلبث هوذة إلا قليلاً حتى هلك .

ولقد وفد رؤساء اليمامة على النبى ﷺ فى السنة العاشرة من الهجرة وفيهم مجاعةُ بن مرارة ، والرحالُ بن عنفوة ومسيلمةُ ابن حبيب فأحسن ﷺ وفادتهم وأكرمهم وأعطاهم وأقطعهم قطائع وأجزل .

ولكن مسيلمة بعد ما رجع من النبى ﷺ ادعى النبوة ، وكتب للنبى ﷺ يقول : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ﷺ سلامٌ عليك أما بعد فقد أُشْرِكتُ معك فى الأمر ؛ فلنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشاً قوم يعتدون .

فكتب إليه رسول الله ﷺ : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب .. أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .. والسلام على من اتبع الهدى .

فبدأ مسيلمة فى نشر خزعبلاته ، وخرافاته واستخفَّ قومَه فأطاعوه ، ولما توفى النبى ﷺ ازداد مسيلمة فى غيه وتمادى فى بغيه فجهز له أبو بكر جيوشا متعاقبة ، آخرها جيش كثيف بقيادة خالد بن الوليد رضى الله عنه ، وبعد معارك عنيفة وملاحم ذهب فيها فئامٌ من الفريقين قتل مسيلمة ، وصالحت بنو حنيفة خالداً على يدى مجاعةَ بن مرارة .. وأخبار هذا القتال مفصلة فى مظانها من كتب التاريخ بما لا يتسع المجال لإيراده هنا ..

وانظر رسم (عقرباء) فى حرف العين تجد شيئاً من التفصيل هنالك .

وممن وفد على النبى ﷺ من بنى حنيفة الأعشى ميمون بن قيس الشاعر الشهير صاحب منفوحة ، وقد أعد قصيدة عامرة فى مدح النبى ﷺ ، وتعداد فضائل الإسلام ومحاسنه ، مطلعها :

ألم تغتمضْ عيناك ليلة أرمدا
وبتَّ كما باتَ السليمُ مسهَّدَا

فسمع قريش نبأ عزمه القدوم على النبى ﷺ وكانوا يدركون أثر الشعر والشاعر ذلك الوقت ، أثره فى المجتمعات وأوساط العرب ، فخشوا إن هو مدح النبى ﷺ أن يضرم عليهم نيران العرب بشعره ، فعارضوه فى طريقه وأغروه بالمال وصدوه ، ومالبث أن هلك بعد أن وصل بلاده منفوحة ، ويقال إن النبى ﷺ حينما سمع قصيدته قال : كاد ينجو .

ومن هذه الإشارات السابقة ندرك ما لليمامة من أهمية وواقع اهتم به الإسلام

واحتفى بشأنه حتى أنه نزل فى بنى حنيفة مانوه بذكرهم وأكد قوتهم وعلو شأنهم على ما عليه بعض العلماء من أن الآية الكريمة : (سَتُدْعَوْن إلى قومٍ أولى بأسٍ شديد تقاتلونَهم أو يُسلَمون) . نزلت فى بنى حنيفة .

ومن قوة بنى حنيفة ، ومنعتهم أنهم كانوا يجبرون على الملوك وينفذون رغباتهم وإن كان النعمان بن المنذر يريد ضدها .. جاء فى (الكامل) للمبرد عن أبى عبيد معمر بن المثنى ، قال : كانت السواقط ترد اليمامة فى الأشهر الحُرم لطلب التمر ، (والسواقط : من ورد اليمامة من غير أهلها) فإن وافقت ذلك وإلا أقامت بالبلد إلى أوانه ، ثم تخرج منه فى الشهر الحرام ، فكان الرجل منهم إذا قدم يأتى رجلا من بنى حنيفة وهم من أهل اليمامة فيكتب له على سهم أو غيره : (فلان جار فلان) ، وكان النعمان بن المنذر أراد أن يجلى السواقطَ منها ، فأجارهم (مرارة الحنفى) ثم أحد بنى ثعلبة بن الدول من حنيفة فسوّغه الملك ذلك ؛ أى أجازه .. فقال (أوس بن حجر) يُحْفِظ النعمان عليه :

زعمَ بنَ سُلمى فى مرارة أنَه مولى السواقط دون آل المنذر

منع اليمامَة حزنها وسهولها من كل ذى تاج كريم المفخر

أما حفظهم للجوار فقد قال عميّر بن سلمى الحنفى لما قتل أخاه وفاء لجاره :

قتلْنَا أخانا للوفاء بجارنا وكان أبونا قد تجير مقابره

وقالت أم (عمير) المذكور :

نعد معاذرا لا عذر فيها ومن يقتل أخاه فقد ألاما

ويفخرون فيقول شاعرهم :

وجدنا أبانا كان حل ببلدة سوى ، بين قيس قيس عيلان والفزر

فلما نأت عنا العشيرة كلها أقمنا وحالفنا السيوف على الدهر

فما أسلمتنا بعدُ فى يوم وقعة ولا نحن أغمدْنا السيوف على وتر

ولقد ودَّ الإمام علىٌّ رضى الله عنه حينما خذله قومه وقعدوا عن نصرته أن يلوذ بركن

اليـمـامـة ، كناية عن نصـرة أهلهـا ، فـقـال :

ولو أنى أطعت عصبت قومى
إلى ركن اليـمـامـة أو شـمـام
ولكنى إذا أبرمت أمراً
منيت بخلف آراء الطغـام

وقال الفرزدق مشيداً بشجاعة بنى حنيفة :

لعمرى لقد سلتْ حنيفة سلة
سـيـوفـا أبت يوم الوغى أن تعـيـرا
سيوفا بها كانت حنيفة تبتنى
مكارم أيام تشـيـب الحـزورا
بهن لقوا بالعرض أصحاب خالد
ولو كـان غـيـر الحق لاقـوا لأنكرا
ولولا سيوف من حنيفة جردت
ببـرقـان أمـسى كـاهل الدين أزورا

وانظر كتابنا (المجاز بين اليمامة والحجاز) ففيه طرف من هذا .

ومن حنيفة ثعلبةُ بـن حنظلة صاحب القبـة يـوم ذى قـار ، وكان يسمى مقطع الوظن والبطن لأنه يوم ذى قار قطع وظين وبطان بعير أمه وبطان بعير ابنته ، ورمى بهما على الأرض لئلا يفروا .

ومنهم أبو دلف البطل الشجاع الذى يقول فيه ابن حبلة :

إنمـا الدنيـا أبـو دلف
بين بـاديـه ومـحـتضـرهْ
فـإذا ولـى أبـو دلف
ولّـت الدنيـا علـى أثـرهْ

وأبو دلف يضرب بشجاعته المثل،قال فيه ابن فنن :

مالى ومالك قد كلفتنى شططا
خوض الحـروب وقـول الدارعين قف
أمن رجال المنايا خلتنى رجلا
أمسى وأصبح محتاجا إلى التلف
تغدوا المنايا إلى غيرى فأسخطها
فكيف أسـعى إليـهـا بارز الكتف
أم خلت أن ضعيف الرأى حركنى
أو أن قـلبـى فـى جـنـبـى أبـى دلـف

وكـمـا كـانت (حـجـر) القـاعـدة الأولى لليمامة فى الجاهلية ، فكذلك ظلت هى القاعدة فى عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين وصدر عصر بنى أمـيـة ، إلا أن أحد ولاة بنى أمـيـة وأقـواهم وأنبههم ذكرا (إبراهيم بن عربى) ، اتخذ من بلد يسمى (العُقَيْر) فى منتصف

وادى حنيفة مما فوق (الدرعية) مقراً له ، مع بقاء (حجر) على قوتها ومكانتها ويرجح أستاذنا (الأستاذ حمد الجاسر) أن (العقير) يقع فى مكان (المغيدر) الآن بجانب (الملقى) .

ومن آثار صدر الإسلام فى (حجر) و (العرض) مسجد بناه خالد بن الوليد رضى الله عنه فى حجر لايزال باقياً حتى الآن غرب (الرياض) جنوبها فى مايسمى الآن حى (ابن غنام) ، ومن الآثار التى تذكر عن الأمويين ووالِيهم إبراهيم بن عربى سجن اليمامة المشهور (دَوّار) الذى ذكرته الشعراء وأفاضت فى ذكر قسوته وشؤمه .

وقامت ثورة فى اليمامة فى عهد بنى أمية سنة ١٢٦ هـ بعد أن مات الخليفة الأموى الوليد ابن يزيد ، قام بالثورة (المهير بن سلمى) جاء إلى والى اليمامة (على بن المهاجر) فخيره بينَ أن يعتزل الإمارة أو يفارق البلاد أو يبقى فى قصره ، فرفض كل ذلك وعزم على حرب المهير ، فجرت بينهما وقعة (القاع) المشهورة انهزم فيها الوالى الأموى وتحصن فى قصره بحجر ، ثم وجد فرصة للفرار ففر بعد أن قتل جنده قتلى كثيرون فاستولى (المهير) على اليمامة وقد قال (مروان بن أبى حفصة) اليمامى شعرا فى ذلك مفتخرا بقومه .

بذلت نصيحتى لبنى كلاب
فلم تقبل مشاورتى ونصحى
فداً لبنى حنيفة من سواهم
فإنهم فوارس كل فتح

وقال شقيق بن عمر السدوسى :

إذا أنت سالمت المهير ورهطه
أمنت من الأعداء والخوف والذعر
فتى راح يوم القاع روحة ماجد
أراد بها حسن السماع مع الأجر

وظلت (حجر) هى قاعدة اليمامة فى العهد العباسى . إلا أن ضعف شأن الدولة العباسية فى عهودها المتأخرة وتضعضع شأنها وتفلت الأمور من يديها واستبداد الولاة وذوى الشأن بما تحت أيديهم ، جعل من اليمامة المنطقة النائية من جهة ، والخطرة الحساسة من جهة أخرى .. جعل الحكم فيها يترنح ، والولاية تضعف وتغلب على أمرها ، مما هيأ الفرصة لمحمد الأخيضر لينقض على اليمامة

ويستولى عليها ، ويتخذ (الخضرمة) قاعدة لملكه ، وذلك حوالى سنة ٢٥٣ هـ .

وبنو الأخيضر أسرة علوية من بنى موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكتب التاريخ تكاد تجمع على أن هؤلاء القوم ظلمة ، سيئو السياسة ، عنصريون ، مفسدون ، عملوا على إضعاف القبائل العربية فى نجد وغيرها مما اضطرها إلى الهجر ة إلى مصر والمغرب العربى وجوانب من أفريقيا وسواد العراق وأطراف الشام ويحدثنا الرحالة (ناصرخسرو) عن شىء من واقع اليمامة فى عهد بنى الأخيضر (حسبما يروى عنه الأستاذ حمد الجاسر) قال :

بلغنا اليمامة بعد مسيرة أربعة أيام بلياليها من (الأفلاج) ، وباليمامة حصن كبير قديم ، والمدينة والسوق - حيث صناع من كل نوع - خارج الحصن ، وبها مسجد قديم ، وأهلها (علويون) منذ القديم ، ولم ينتزع أحد منهم هذه الولاية إذ ليس بجوارهم سلطان أو ملك قاهر .

وهؤلاء العلويون ذوو شوكة ، فلديهم ثلاث مئة وأربعون فارس ومذهبهم الزيدية ، وهم يقولون فى الأذان (محمد وعلى خير البشر وحى على خير العمل) ، وقيل إن سكان هذه المدينة شريفية .. وباليمامة مياه جارية بالقنوات ، وفيها نخيل ، وقيل إنه حين يكثر التمر يباع الألف منه بدينار . أ هـ .

ظل عهد الأخيضريين فى اليمامة حوالى قرنين وأربع عشرة سنة . أى منذ سنة ٢٥٣ هـ إلى سنة ٤٦٧ هـ .. يسود فيها المذهب الزيدى وتحكم حكما مجحفًا مجنفا ، ولم تعلم أن الله خبأ لها أن يسود فيها مذهب السلف وأن تنصر فيها السنة وتخذل البدعة وتختفى الخرافة وتقام شرائع الدين ، فجزى الله محمد بن عبد الوهاب خير مايجزى به مؤمن مجاهد .

على أنه وقع خلاف بين المؤرخين عن الكيفية التى انتهى بها نفوذ بنى الأخيضر فى اليمامة وعلى يد من ..

فالمرجح بالنسبة للمدة ماذكرنا . أما بالنسبة لمن أدال دولتهم فالمرجح أنه على يد

القرامطة ضربوهم ضربة مؤلمة عاشوا بعدها زمناً ولكنها خضدت شوكتهم ، وظلوا بعدها فى ضعف حتى دالت دولتهم وذابوا فى قبائل المنطقة .

ومنذ عهد الأخيضريين ونفوذ مدينة (حجر) قد أخذ فى التقلص والانكماش ولم تقم بعدهم فى اليمامة ولاية قوية نافذة بل انتقلت السلطة والسيطرة إلى شرق الجزيرة (الأحساء) وماحولها ، مثل حكم القرامطة والعيونيين ، وكلهم قاعدة حكمهم الأحساء ويحكمون نجدا حكما مهزوزا مزعزعا بقدر ما يحصلون على الأطماع ويستغلون الرغائب .

بعد الأخيضريين أصبح حكم اليمامة مترنحا . وكثير من حلقات تاريخها مفقود قرونا متعاقبة لانحس لها بأثر ولا نعثر على حقيقة ؛ قرونا مظلمة مجهولة التاريخ عمياء الأثر .. حتى القرن الثامن حيث زارها الرحالة « ابن بطوطة » سنة ٧٣٢ هـ وقال :

« ثم سافرنا منها إلى مدينة (اليمامة) وتسمى (حجرا) .. مدينة حسنة خصبة ذات أنهار وأشجار يسكنها طوائف من العرب أكثرهم من بنى حنيفة وهى بلدهم قديما وأميرهم « طفيل بن غانم » ثم سافرت منها بصحبة هذا الأمير برسم الحج .. » . اهـ .

ويبدو من كلام ابن بطوطة هذا ، ومن كلام لابن فضل الله العمرى حيث يعدد مساكن العرب فى كتابه (مسالك الأبصار) ويذكر بعض من يسكن اليمامة فى القرن الثامن وأن جلهم من بنى حنيفة .

ومن كلام لابن لعبون المؤرخ النجدى أورد فيه شعراً عاميا من شعر (جعيثن اليزيدى) من بنى حنيفة من (الجزعة) المعروفة فى أسفل الرياض فى رثاء (مقرن بن أجود بن زامل) أحد ولاة الأحساء الذى قتله البرتغاليون سنة ٩٢٨ هـ حيث يقول :

ونجد رعى ربعى زاهى فلاتها
على الرغم من سادات (لام) و (خالد)
وسادات (حجر) من (يزيد) و (مزيد)
قد اقتادهم قود الفلا بالقلايد

من هذه النصوص ندرك أن السلطة عادت لبنى حنيفة فى هذه القرون المتأخرة وبعد اضمحلال نفوذ (الأخيضريين) ، مما جعلهم ينزعون إلى أوطانهم ، ويستأنفون نفوذهم وإن كان لم يبلغ ما بلغه من قبل .

وفى منتصف القرن التاسع وفد (مانع المريدى) من بنى حنيفة على ابن عمه (ابن درع) صاحب (حجر) و (الجزعة) .. وفد عليه من الدرعية بالقطيف فاقطعه (المُلَيْبِيد) و (غَصِيبة) وما بينهما الذى هو مكان الدرعية الآن فسماه من يومئذ بهذا الاسم (الدرعية) نسبة إلى هؤلاء الدروع ؛ وقيل لأن بلاد مانع التى كان يسكنها فى الخط اسمها (الدرعية) ، فسمى هذا المكان باسمها .

أما آل يزيد من بنى حنيفة فانحصرت ممتلكاتهم فى الوصيل من (الدرعية) إلى (الجبيلة) .

ومانع المريدى هذا هو الجد الثالث عشر للملك عبد العزيز رحمه الله ، ولم يزل نفوذهم يكبر وعددهم يكثر حتى أصبحت لهم الصدارة وتلاشى الآخرون فى ظل نفوذهم .

أما (حجر) ، فإن عوامل الضعف التى اعتورتها والانقسامات والفتن واختلال الأمن واضطراب الولاية .. كل ذلك جعل من منطقة (حجر) تقسيمات ومسميات وإمارات ، كل منها له نفوذه واستقلاله بأمره وكيده وعدواته لمجاوريه .. وبرز أكبر مابرز هناك ناحيتان ، كل منهما تدعى الزعامة وتحتضن السلطة ، هما (مقرن) و (معكال) .. وتشير القرائن إلى وقوع حروب وثارات بين هذه الأقسام (أو الأحياء على الأصح) ، من ذلك هذا البيت المتوارث منذ ذلك الحين :

يامحلى والشمس باد شعقها
ضرب الهنادى بين (مقرن) و (معكال)

واللقطات التاريخية التى تمدنا بنتف من تاريخ المنطقة تفيد أن السلطة المحدودة انتقلت من (حجر) إلى (مقرن) و (معكال) وأن اسم الرياض لم يبرز إلا فى القرن الحادى عشر. وهذه اللقطات لاتمدنا بتاريخ مفصل ولا بعقود مسلسلة وأجيال ذات نفوذ مبسط ، ولكنها إشارات لا تخلو من فائدة . من ذلك أنه فى سنة ٩٨٦ هـ غزا شريف مكة حسن بن أبى نمى بلدة (معكال) و حاصرها بخمسين ألف جندى وتغلب عليها ، وتعهدوا له بدفع إتاوة سنوية .

وفى سنة ١٠٣٣ هـ ذكر ابن بشر قتل (أولاد مفرج) بن ناصر صاحب (بلدة مقرن) وفى سنة ١٠٣٧ هـ احتل آل (مديرس) بلدة (مقرن) .

وفى سنة ١٠٥٦ هـ قتل محمد بن مهنا أمير مقرن .

وفى سنة ١٠٩٩ هـ احتل سلامة أبا زرعة بلد مقرن .

كل ما أسلفناه يتحدث عن (حجر) (الرياض) الآن ، وكله قبل أن يبرز اسم الرياض فى القرن الحادى عشر الهجرى ، أعطينا عنه إلمامات يقتضيها المقام ، خاصة بحجر وبعهود (حجر) .

عبد الله بن محمد بن خميس

عضو المجمع المراسل من السعودية